'أفاق المستقبل' (3): القوى السنية، وخريطة التفاعل بين القوى والمصالح:

19-8-2004

هناك مؤشرات قوية على محاولات ترتيب البيت الداخلي للسنة وعلى وجود دور كبير للعلماء والقيادات الفكرية في هذا المجال، الأمر الذي يبشر بوجود وحدة اجتماعية وفكرية سنية عربية في مواجهة الاحتلال، وتجاوز حالة الانقسام والفرقة التي يحاول الاحتلال استثمارها، وإن كانت الفترة الأخيرة قد أظهرت أزمة حقيقية في هوية المقاومة الإسلامية نتيجة الخلاف بين المقاومة الوطنية وبين جماعة التوحيد والجهاد والتي يتآلف عمودها الفقري من المتطوعين العرب.

بقلم **محمد سليمان**

-3-

منذ احتلال العراق أظهر المجتمع السني، وفي مقدمته التيار الإسلامي، حسا عاليا بالمسؤولية الشرعية والتاريخية، وتمكن خلال فترة قصيرة نسبيا من استيعاب الصدمة وبناء وعي دقيق وعميق بالمرحلة وبالأدوات المطلوبة. في حين ظهرت عدة اتجاهات فكرية وسياسية سنية عربية في التعامل مع الاحتلال:

1- اتجاه الحزب الإسلامي (جماعة الإخوان المسلمين): وتمثل موقفه برفض الاحتلال، لكن مع عدم مواجهته، والمشاركة في مجلس الحكم الانتقالي (من باب الضرورات) بحجة الحفاظ على الحقوق السياسية لأهل السنة في العراق، منعا من استفراد الطوائف الأخرى بالتحالف مع الاحتلال في صوغ المجال السياسي العراقي القادم. وقد شارك الحزب من خلال أمينه العام محسن عبد الحميد في المجلس الانتقالي، إلا أنه تعرض لضغوط عديدة الآن للانسحاب من المجلس، خاصة مع أحداث الفلوجة، وفي فترة ما قبل نقل السلطة الشكلية للعراقيين.

2- هيئة العلماء المسلمين: والتي تشكلت من عدد من القيادات الفكرية والعلمية الإسلامية، ومثلت موقفا وطنيا متميزا، من خلال رفض الاحتلال والدعوة إلى مقاومته سلميا، ودعم المقاومة العسكرية بطريقة وبأخرى، والدعوة إلى تجاوز الخلافات المذهبية والطائفية داخل المجتمع العراقي.

3- المقاومة المسلحة ضد الاحتلال: والتي ميزت السنة في البداية قبل انضمام مقتدى الصدر وجيشه إلى جانبها، وفي حين كان الاحتلال يحاول في البداية التقليل من شان المقاومة، وربطها بفلول حزب البعث والنظام السابق، إلا أنها أظهرت قدرات عسكرية وقتالية كبيرة، وتشير تقارير أمنية أمريكية إلى أن أعداد المنخرطين في المقاومة تتجاوز الخمسين ألف مقاتلا، ويمكن تحديد أبرز الفئات المكونة للمقاومة المسلحة بالاتجاهات الإسلامية ، المواطنين، الجيش العراقي المنحل، أعضاء حزب البعث، أبناء العشائر العراقية، المجاهدين العرب .

بيد أن خريطة التفاعل تظهر تعقيدا وتركيبا شديدا في المصالح والحسابات، ويمكن من خلالها قراءة تحولات إدارة الصراع، بين القوى المختلفة، سواء على صعيد الداخل السني أو العلاقة مع الطوائف الأخرى ..

ففي سياق السنة يمكن الوصول إلى حالة من التوافق بدأت معالمه من خلال مجلس الشورى لأهل السنة والجماعة، الذي تشكلت لجنته التحضيرية من مجموعة من العلماء يمثلون مختلف أطياف التيار الإسلامي، ويمكن لهذا المجلس أن يشكل مرجعية علمية وسياسية وفكرية لأهل السنة لتمثيل خطابهم السياسي والتواصل مع الأطراف الأخرى في المجتمع العراقي. ولا بد من العمل ابتداء على استكمال ترتيب البيت الداخلي وتعميق الحوار حول الخيارات المطروحة وأدوات العمل السياسي وضوابطه من خلال مجلس الشورى ، والذي من المتوقع أن يؤدي دورا كبيرا، خاصة إذا خرج الحزب الإسلامي -من الترتيبات السياسية الجارية بهيمنة أميركية واضحة- بعد ثبات فشل هذه الترتيبات وضعفها، وغياب القاعدة الاجتماعية الحاملة لها .

وتظهر خريطة التفاعلات في السياق السني كذلك على وجود روابط وخيوط تصل بين هيئة العلماء السنة وأطياف من المقاومة العراقية، الأمر الذي سيساعد على ترشيد المقاومة المسلحة وتحديد عملياتها العسكرية ومشروعها الجهادي بما يخدم الأهداف السياسية وأبرزها الخلاص من الاحتلال. والأيام القادمة مرشحة لتوثيق العلاقات والصلات بين المقاومة المسلحة وبين هيئة علماء المسلمين والمثقفين والتيار السياسي الإسلامي بما يخدم الطرفين العسكري والسياسي، ويزيل حالة الالتباس التي كانت تعتري بعض العمليات المسلحة التي تذهب بالمدنيين والأبرياء، أو العمليات التي كانت تستهدف إحداث حرب طائفية.

إذن هناك مؤشرات قوية على محاولات ترتيب البيت الداخلي للسنة وعلى وجود دور كبير للعلماء والقيادات الفكرية في هذا المجال، الأمر الذي يبشر بوجود وحدة اجتماعية وفكرية سنية عربية في مواجهة الاحتلال، وتجاوز حالة الانقسام والفرقة التي يحاول الاحتلال استثمارها، وإن كانت الفترة الأخيرة قد أظهرت أزمة حقيقية في هوية المقاومة الإسلامية نتيجة الخلاف بين المقاومة الوطنية وبين جماعة التوحيد والجهاد والتي يتآلف عمودها الفقري من المتطوعين العرب.

أما بخصوص التفاعل بين القوى الشيعية، فمن الواضح أن هناك اختلافا كبيرا بين مقتدى الصدر وتياره وبين باقي القوى الشيعية الأخرى، وكان هناك محاولات أمريكية أدت إلى عزل الصدر عن السياق السياسي الشيعي وصولا إلى التخلص منه ومن تياره وجيشه المسلح. بيد أنه من الصعوبة بمكان الوصول إلى هذه المرحلة؛ وذلك لأن الصدر لا يمثل تيارا محدودا داخل المجتمع العراقي الشيعي، وإنما يقترب ليكون ممثلا لفئات شيعية عديدة خاصة الطبقة الفقيرة والكادحة داخل المجتمع الشيعي .

وفي الوقت الذي كانت تبدو فيه معالم تقارب بين الصدر وبين المقاومة السنية، خاصة بعد مرحلة المواجهة المسلحة بينه وبين الاحتلال، إلا أن مواقف الصدر السياسية والفكرية أثارت كثيرا من علامات الاستفهام حول إمكانية هذا التقارب، في ظل الموقف الطائفي الحاد الذي يتخذه، والآراء السياسية المغرقة في الرموز الدينية الشيعية والرؤى المثالية..

بالنسبة للقوى الشيعية الأخرى، فعلى الرغم أن مواقفها السياسية والفكرية أقرب إلى الاعتدال من موقف الصدر؛ إلا أن جزءا كبيرا منها يرتبط بحسابات الموقف الإيراني، كما أنّ اتخاذها موقف مهادنة الاحتلال - والتحالف معه في بعض الأوقات - يشكل عائقا فكريا وسياسيا في إمكانية الوصول معها إلى موقف موحد للمرحلة الحالية، لكن هذا لا يمنع من وجود تنسيق وحوار وتشاور لتحقيق المصلحة الإسلامية الوطنية العامة، وتجنب المشاكل المثارة.

يبقى هناك بعض القوى الشيعية التي يمكن الوصول معها إلى مرحلة قريبة جدا من التنسيق العالي، كبعض تيارات حزب الدعوة الشيعي التي ترفض الهيمنة الإيرانية وترفض التعامل مع الاحتلال، والحركة الإسلامية الشيعية التي تشكل امتدادا لتيار الشيخ الخالصي وتنادي بالتقارب مع السنة ومقاومة الاحتلال.

أما على صعيد القوى السنية الكردية، فتبدو المسافة بعيدة - في التفاعل الحالي- بين مواقف أهل السنة العرب ومواقف التيارين الكرديين الرئيسين، لكن بالنسبة لأنصار الإسلام والجماعة الإسلامية فتبدو علاقات التفاعل ممكنة وقوية خاصة في المرحلة القادمة ، مع تشكل مجلس الشورى لأهل السنة ، كما يمكن بناء درجة من التنسيق مع الاتحاد الإسلامي – الذي يمثل الأخوان المسلمين الأكراد - .

تبقى هناك فئات وطنية وقومية معارضة للاحتلال الأمريكي داخل السنة – بشكل كبير– وهذه الفئات يمكن بناء درجة كبيرة من الصلة معها على قاعدة مقاومة الاحتلال، والاتفاق على مستقبل نظام الحكم والمرحلة السياسية فيما بعد الاحتلال الأمريكي.